مفاهيم تحليل الخطاب في التراث العربي
ابن وهب رائدا

د.بلقاسم محمد حمام
جامعة الملك فيصل-الأحساء-المملكة العربية السعودية

Abstract: This research aims at proving that Ibn Wahb (335 H) is the founder of the art of discursive linguistics in Arabic literature. This claim is supported by the qualities of his writings. He is the first writer with independent masterpieces in this field. Second, he is well aware of the techniques of discourse analysis in all its different types and braches, making good use of his Arabic and Islamic culture. Also, he made use of the foreign cultures of his time, avoiding modeling and molding for the sake of argumentation and innovation.

Key Words: Ibn Wahb, Discourse, Theoretical Grounding, Linguistic Proximity, Argumentative Proximity

مقدمة

إن المتمعن في البحث التراثي اللغوي العربي لا يشك لحظة واحدة في أنه لم يعن بشيء اعتناءه بالخطاب اللغوي، من حيث فهمه وتأويله، وكذلك من حيث إنشاؤه وتركيبه، وقد كان للجانب الأول –حسب ما أرى- الحظ الأوفى من مجهودات السابقين، على العكس من الجانب الثاني، جانب بناء الخطاب وتشكيله، ومن علامات ذلك أن جلّ الدراسات التفسيرية والبلاغية، وحتى النحوية، كانت تهدف في الأساس الأول إلى الارتقاء بالمتلقي من خلال توفير ما يلزمه من معارف، ليكون متلقيا مثاليا، ومن ثَمّ فَهْم الخطاب على الوجه الأمثل، بل لم تكتف بذلك إذ راحت تحاول تفسير الخطاب بأنواعه (القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر...) وتقدِّم

المنارة للاستشارات

المعاني والمقاصد لهذا المتلقي، بينما لم يحظ جانب بناء الخطاب وتشكيله إلا باليسير من المحاولات، تلك المحاولات التي كان يغلب عليها النظرة الجزئية من جهة، والبعد التمثيلي من جهة أخرى، على حساب النظرة الشمولية، التي تحيط بجميع قضايا مجال تحليل الخطاب أو بمعظمها، وعلى حساب الجانب التنظيري، الذي يؤسس المفاهيم، ويحدد الرؤية، وقلما توجد دراسة في هذا الاتجاه حاولت ذلك، بل إنني لم أعثر على دراسة بهذه المواصفات، إلا تلك التي جاء بها ابن وهب في القرن الرابع الهجري، إذ تفوّق في نظري على أهم دراسة سبقته في هذا الاتجاه، وهي محاولة الجاحظ في القرن الثالث، فهذه الأخيرة رغم نفاستها، وريادتها في مجال تحليل الخطاب، فإنه غلب عليها التمثيل والنمذجة، على حساب التنظير والتأسيس المفاهيمي، ولعل لذلك أسبابا، منها الهدف الذي كان يرمي إليه كل كاتب، فالجاحظ كان هدفه الأساس هو إثبات أن العرب فاقوا غيرهم من الأمم –وكان من دوافعه في ذلك نزعته الشعوبية– في هذا المجال، ومن ثم راح يحشد الأقوال والنماذج التي تعضد ما يرمي إليه، أما ابن وهب فلم يكن هدفه هدف الجاحظ، وإنما كان هدفه أبعد غورا من ذلك، إذ رمى إلى تبيين الأسس والقواعد التي يقوم عليها الخطاب اللغوي في جميع مستوياته، والخطاب الأدبي الرفيع واحد منها، كما أنه مما يختلف فيه عن الجاحظ، هو أن هذا الأخير كان همه الدفاع عن الخطاب العربي، في مقابل الخطاب الأجنبي[1]، بينما كان وكد ابن وهب التركيز على القواسم المشتركة، التي يقوم عليها الخطاب عند جميع الأمم، ولذلك جاء عرضه مقنّنا ومبوّبا للبيان وأسسه وأنواعه وأساليبه[2]، وهو في رأيي أنضج مما قدمه دارسو الخطاب قبله من أمثال الشافعي، الذي –حسب الجابري– هو أول من وضع قوانين تفسير الخطاب، أو البيان القرآني[3]، على وجه الخصوص، لأن مجهود الشافعي على نفاسته وريادته لم

المنارة للاستشارات

يركز إلا على الخطاب الديني، بينما حرص ابن وهب أن تكون دراسته عامة، تشمل كل خطاب، إضافة إلى ما وفَّره الفارق الزمني بين الرجلين، من انضاج لفكرة تحليل الخطاب، فالشافعي من أبناء القرن الثاني (ت204هـ)، وابن وهب من أبناء القرن الرابع (ت حوالي 335هـ).

تتمثّل **إشكالية الدراسة** في متابعة جهود ابن وهب في مجال تحليل الخطاب، وإبرازها بشكل يجعل الإفادة منها ممكنة، خاصة على مستوى المفاهيم، مع بيان مدى قربها مما توصلت إليه الدراسات الحديثة في هذا المجال، وهو أمر لم أجد مَن قام به من الدارسين، إذ لم يلق جهد ابن وهب في مجال لسانيات الخطاب عناية حتى من المهتمين بعملية التأصيل لمباحث علم تحليل الخطاب في التراث العربي.

إن المجهود الذي قدّمه ابن وهب مجهود كبير، يقرّ به حتى الذين يرون أنه كان عالة على الجاحظ في مسائل كتابه، إذ شهدوا له أنه بوَّب كتابه تبويبا علميا منظما، أتى فيه على معظم وجوه البيان، مستدركا على الجاحظ ما فاته من إرادة الحصر والتنظيم والتقسيم والتحديد[4]، وهذه الفكرة يؤكدها محمد العمري مثلا، بقوله: "والإجراء المنهجي الذي قام به ابن وهب إزاء الجاحظ.أنه حاول إدماج المواد البلاغية المتوفرة في نسق ذي طبيعة معيارية"[5]، هذا مع إعطاء الدليل (البرهان) عليها من ثقافته العربية (البيان العربي)، وهو النوع الذي يجيده ويتقنه؛ ولذلك سمح لنفسه أن ينتقد في صدر كتابه جهد الجاحظ، الذي أغفل –حسبه– الجانب التنظيري لهذا الميدان، يقول ابن وهب: "وإنك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سمَّاه كتاب البيان والتبيين، وإنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارا منتخلة، وخطبا منتخبة، ولم يأت فيه بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه"[6]، ومن ثَمّفقد كان هدف ابن وهب أن يقتنص ما فات الجاحظ، وأن يُتِمّ – من حيث لا يدري– جهده، ويكمل مسيرته،

المنارة للاستشارات

فاستهدف توضيح أقسام البيان (وجوه)، ووظائفه (أصوله)، قال: "وسألتني أن أذكر جملا من أقسام البيان آتية على أكثر أصوله"[7]، والملاحظ أنه يستعمل كلمة (وجوه) بمعنى (أقسام)، و(وظائف) بمعنى (أصول)، وهذا ظاهر من خلال ما أوردته الآن من كلامه، وليس هذا انتقاصا من المجهود الجبار للجاحظ في هذا المجال، وإنما هي إشارة إلى اختلاف طريقة عرض المادة العلمية المتعلقة بمجال تحليل الخطاب، إذ تميز الجاحظ بعرضه فن القول وشروطه ومتطلباته حسب تصميم منطقي ولكنه مضمر[8]، بينما كان عرض ابن وهب لأقسام الخطاب وشروطه ومتطلباته وفق تصميم منطقي ظاهر[9].

وقد استعمل ابن وهب في العنوان لفظ (وجوه)، بينما استعمل في مقدمة كتابه لفظ (أقسام)، وهذا ماالتزمه كثير من علماء العربية، ويظهر ذلك في عناوين مؤلفاتهم، من مثل: كتاب المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنه لابن جني، والكشاف في وجوه التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، للزمخشري.

ولم يكتف الكاتب ببيان أقسام الخطاب، وإنما تجاوز ذلك إلى بيان أصوله التي يقوم عليها، ووظائفه التي يؤديها، وبذلك يكون قد أتى على معظم مسائل هذا العلم، ولقد أحس باتساع الموضوع الذي رسم له في ذهنه هذه الحدود، فالتزم استراتيجية الاختصار، وهي استراتيجية تقتضي التركيز على القضايا الكبرى في هذا المجال – وفي كل مجال– والاكتفاء بالتلميح إلى القضايا الفرعية، دون الخوض في عرض تفصيلاتها، وقد التزم ابن وهب بذلك، ولم تغب عنه هذه الاستراتيجية التي وعد القارئَ الالتزامَ بها إلى نهاية الكتاب، الذي جاء كبير الحجم (أكثر من 300 صفحة)، وقد علل ابن وهب في خاتمة كتابه أنه رغم هذا الحجم الكبير للكتاب إلا أنه لم يأت "في كل فصل إلا بأقل ما يمكن أن يؤدى به"[10]، ويعلل لنا سبب هذا الحجم بقوله:

المنارة للاستشارات

"وإنما طال الكتاب لكثرة فنون القول فيه وأقسامه، واختلاف معاني البيان وأحكامه"[11]، وكان هدفه أن يضع كتابا شاملا في تحليل الخطاب، قائلا: "لأنا لم نحب أن نخل بشيء منه حتى ندل عليه، ونشير إليه"[12].

مفهوم الخطاب عند ابن وهب: يفاجئنا ابن وهب بالمفهوم العميق الذي يعطيه للخطاب، إذ يربط ظاهرة الخطاب بالعقل من جهة، كما يربطه بالسلوك من جهة أخرى، بمعنى أنه يعطي للخطاب بعده الذهني، كما يعطيه بعده الإجرائي، وهذا ما يمثل الاتجاهين المعاصرين في تحديد بُعد الخطاب، فمثلا يتجه (أ.هـ. غادامير) إلى الأول، بينما يتجه (ق.غيوم) إلى الثاني[13]، كما انتبه ابن إلى أن الخطاب ظاهرة متنامية عبر مراحل مختلفة، يسلم السابق منها للاحق، بدءا من مرحلة التجريد، ووصولا إلى مرحلة الإنجاز.

فمن دلائل ربط ابن وهب الخطاب بالعقل أنه –حتى قبل أن يعرض أقسام الخطاب– يذكر نعمة العقل التي حبا الله تعالى بها الإنسان، وفضله بها على سائر مخلوقاته، لأن العقل هو مناط التكليف، به يميّز الإنسان بين الخير والشر، وبه يتلقى خطابَ الله تعالى، وبه يفهمه، ومن فقَدَ جهاز استقبال الخطاب الإلهي وتفكيكه، سقطت عنه التكاليف[14]، والعقل عنده نوعان: موهوب، ومكسوب، والأول أصل والثاني فرع، الأول ثابت ومشترك، والثاني ذاتي ومتغير، والعبرة بالأول[15]، وبهذا العقل يَتَبَيَّن للإنسان "ما يريد أن يَتَبَيَّنه"[16]، وإذا تَبيَّن استطاع أن يُبين، وعليه كان (البيان) –الذي هو بمعنى الخطاب، والإعراب عما في النفس بمعونة العقل– النعمةَ العظيمة الثانية التي أنعم الله بها على الإنسان، ومن ثَمَّ يكون العقل هو العنصر الأساس في فهم الخطاب واستقباله، كما أنه العنصر الأساس في إنشائه وبنائه.

المنارة للاستشارات

وبذلك يكون ابن وهب قد أشار إلى أن مجال الخطاب عام، يشمل كل خطابات الأمم والمجتمعات، فلا يختص بقوم دون قوم، وهذه هي عالمية الخطاب في أسسه وقوانينه، التي يعمل الدرس اللساني الحديث على بلورتها.

ويأتي اهتمام ابن وهب بالعقل، من ثقافته الإسلامية أولا، بدليل أنه أول ما دلل به على نعمة العقل هو القرآن الكريم، ثم ثقافته الأجنبية، إذ كثيرا ما كان يشير إلى أساطين المنطق اليوناني، من أمثال أرسطو وأفلاطون[17]، بل إن منهج كتابه في عمومه سائر على منهجهم، إذ أقامه على المنطق والأخلاق والسياسة، وهو منهج أرسطوطاليس في كتابه[18]، وكثيرا ما كان يعبر عن المناطقة بالحكماء في مقابل الأدباء[19]، ثم إن العصر الذي عاش فيه ابن وهب كان عصر ازدهار العلوم العقلية في الثقافة العربية الإسلامية، وهو العصر الذي ضم شخصيات كان لها الأثر الكبير في دعم هذا الاتجاه، من أمثال أبي بشر متى، والفارابي.

ثم يأتي ربط ابن وهب الخطاب بالأثر المترتب عليه، حتى إنَّ هذا الأثر أصبح جزءا لا يتجزأ من مفهوم الخطاب ذاته، وهو ما نجد له مثيلا في الدراسات الحديثة، كما هو الحال عند (بنفنست Benveniste)، الذي يرى أن الخطاب ملفوظ منظور إليه من جهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل، وأنه يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني[20]، فحين تعرض ابن وهب لعنصر (الحديث)، أو بتعبيرنا المعاصر (الحوار) – وهو فرع من فروع الخطاب – يقول: "وأما النافع والضار، فإن النافع من الحديث ما كانت عواقب القول فيه والاستماع له والعمل عليه مفضية بسامعه إلى نفع عاجل أو آجل"[21]، وقد أشار في بداية ذكر أقسام (وجوه) الخطاب، حينما وصل إلى الخطاب اللغوي، أن من أسباب كونه ضرورة حياتية، أنه

المنارة للاستشارات

السبيل إلى التأثير في الغير، على عكس الأنواع المجردة منه (الاعتبار، والاعتقاد)[22].

كما يفاجئنا ابن وهب أيضا في باب مفهومه للخطاب بالعمق الكبير الذي نظر من خلاله إليه، إذ يرى أن الخطاب يتشكل في أكثر من مظهر، بعيدا عن أطرافه، لأن الخطاب عنده يقوم على (البيان)، الذي يعني نقل رسالة من جهة باثَّة إلى جهة مستقبِلة، سواء أكانت الجهتان على نية التخاطب أم لا، ولذلك عدَّ بيان الأشياء بذواتها، وإن لم تبن بلغاتها، خطابا كامل المواصفات.

ثم إن الخطاب عنده يتجاوز اللغة، ومن ثَمّ كان ما يحصل في القلب عند إعمال الفكر خطابا[23]، وهو ما نادى به كثير من فلاسفة اللغة كـ فان ديك، الذي يرى أن النص/الخطاب لا يمكن أن يحدد فقط على مستوى واحد، بل من الضروري أن يحدد من خلال مستويات متعددة، تركيبية، ودلالية، وتداولية[24].

ومن الواضح أن ابن وهب أطلق على الخطاب مصطلح (البيان) باعتبار أن التوضيح هو الوظيفة الأساسية له، التي يُجمع عليها القدماء والمحدثون على السواء، فليس للخطاب وظيفة غير نقل معلومة من طرف إلى طرف بغية التأثير فيه، وهذا الذي جاء عند ابن وهب قريب جدا مما ورد عند المحدثين، الذين يربطون –في مفهوم الخطاب– بين البنية والوظيفة، بل يؤكدون أن هذه البنية خاضعة لهذه الوظيفة[25]، والوظيفة الأساسية بإجماع الدارسين كما قلت هي التواصل[26]، وربما كان استعمال ابن وهب لهذا المصطلح هو أنه كان متداولا في المنظومة الفكرية العربية، وما الجاحظ من زمن ابن وهب ببعيد، إضافة إلى استعمال القرآن الكريم لفظ البيان للخطاب البشري، في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(سورة الرحمن الآية4)، وكذلك ارتباط مفهوم الإنسان ذاته بالبيان، إذ" هو الحي الناطق المبين"[27]، إضافة إلى أن

المنارة للاستشارات

مصطلح البيان هو أكثر المصطلحات العربية تعبيرا عن خصائص الرؤية التي تقدمها المنظومة اللغوية العربية، وهو مصطلح لا نجد له مثيلا في اللغات الأخرى، ومن ثَمَّ أصبح يدل على نظام معرفي معيّن[28].

مع الإشارة إلى أنه استعمل مصطلح الكلام، ومصطلح الخطاب كذلك في باب الخطبة، قال: "لأن الكلام إنما وضع ليعرف به السامع مراد القائل"[29]، وقال: "والخطابة والخطاب اشتقا من الخطب والمخاطبة لأنهما مسموعان"[30]، وقد لاحظت أن أول مصطلح ورد عنده هو لفظ الخطاب، في مقدمة كتابه حيث قال: "إن أولى ما افتتح به اللبيب كتابه، وابتدأ به الأديب خطابه"[31]، كما استعمل مصطلح الحوار في قوله، وهو يبيِّن النوع الأول من الخطاب (الاعتبار): "فإن أجابتك حوارا، وإلا أجابتك اعتبارا"[32]، كما استعمل لفظ (القول) "اعلم أن القول المنفي ليس بموجب حكما غير حكم النفي[33]، وقال في باب العبارة: "فأما البيان بالقول فهو العبارة"[34]، كما يقول: "وليس في فنون القول ما يقع به الصدق والكذب غير الخبر والجواب"[35]، كما أنه استعمل لفظ الكلام للمنثور مقابل المنظوم[36].

ومن النصوص التي يُفهم منها تغليبه لمصطلح الخطاب على غيره، قوله: وأما الإطالة ففي مخاطبة العوام، ومن ليس من ذوي الأفهام...ولهذا استعمل الله عز وجل في مواضع من كتابه تكرير القصص"[37].

كما أنه انتبه إلى شيء غاية في الطرافة، وهو أن الخطاب بصوره المختلفة يتنامى ويتشكل ويأخذ مظاهر مختلفة، وكل مظهر يتحول إلى قسم مستقل من حيث الشكل، ولكنه يظل مرتبطا بغيره من الأقسام من حيث الامتداد، وهذا يظهر في قوله: "فهذا وجه بيان الأشياء بذواتها لمن اعتبرها، وطلب البيان منها، فإذا حصل هذا البيان للمتفكر صار عالما بمعاني الأشياء، وكان ما يعتقد من ذلك بيانا ثانيا غير

المنارة للاستشارات

ذلك البيان، وخُصّ باسم الاعتقاد، ولما كان ما يعتقده الإنسان من هذا البيان...غير متعد له إلى غيره، وكان الله عز وجل قد أراد أن يتمم منه فضيلة الإنسان خلق له اللسان، وأنطقه بالبيان...فصار ذلك بيانا ثالثا"[38]، وقال عن الكتابة في السياق نفسه: "ثم إن الله عز وجل لمّا علم أن البيان مقصور على الشاهد دون الغائب...وأراد تعالى أن يعم بالنفع في البيان جميع أصناف العباد...ألهم عباده تصوير كلامهم بحروف تعارفوا عليها، وكمُلت بذلك نعمة الله عليهم"[39]، وقد فاق ابن وهب في هذه الفكرة الجاحظ، لأن الجاحظ اكتفى ببيان صنوف البيان ولم يتجاوزها، بل إنني لم أر هذه الفكرة عند غيره من العلماء القدماء.

ويكون ابن وهب من خلال نصوص البرهان التي أوردتها مقراّ أن الخطاب (البيان) منوط بالمنفعة، وحكم المنفعة أن تعمّ، ومن ثَمَّ كانت سيرورة الخطاب لتحقيق هذا الهدف، الذي من أجله احتاج الإنسان أن ينتقل من صورة خطاب إلى أخرى، فخطاب الاعتبار الذي هو خطاب صامت، يغيب فيه بعد القصد، ومن ثَمَّ فلا فائدة له إلا إذا صادف متلقيا يحوّله إلى خطاب اعتقاد، ناتج من إعمال الفكر بطريقة سليمة في خطاب الاعتبار، ولن يتمّ ذلك إلا بمحاورة الإنسان ذاته، واقناعها بما يوجبه خطاب الاعتبار، فإن أفلح حقق الشكل الثاني من الخطاب، وهو خطاب الاعتقاد، ثُمّ إنه حتى تتوسع دائرة فائدة الخطاب لا بد أن يحوّل الإنسان خطاب الاعتقاد من صورته التي هو عليها، إلى خطاب مادي يستطيع غيره الافادة منه، ولكن هذه الفائدة تبقى رهينة الموقف التواصلي لا تتعداه، والإنسان بطبعه يطمح إلى توسيع دائرة الفائدة لتبلغ أقصى مدى لها، بمعنى أن يتعدى أثرها المتلقي الحاضر، إلى المتلقي الغائب، أي أن يتحرر الخطاب من قيود الزمان والمكان، وهو ما جعله يتحول إلى الصورة الرابعة، وهي الصورة الكتابية.

المنارة للاستشارات

ويمكن لنا – من خلال الطرح المنهجي لابن وهب –أن ننظر إلى هذه الأنواع على أنها مراحل يمر بها الخطاب الإنساني، كما يمكن أن نجملها في مرحلتين كبيرتين[40]باعتبار طريقة تكوُّن الخطاب:

- المرحلة الذهنية: ويكون فيها المتكلم والمتلقي ذاتا واحدة، ويمثلها عند ابن وهب الاعتبار والاعتقاد، والهدف الأساس فيها هو (توفير المعرفة).
- المرحلة الإنجازية: ويكون فيها المتكلم والمتلقي ذاتين مستقلتين، ويمثلها عند ابن وهب العبارة، والكتاب، وهدفها الأساس هو(صياغة المعرفة)[41].

والذي سوغ لي هذا التقسيم هو الطريقة الترتيبية التي نَصَّ عليها ابن وهب، وهو يعرض هذه الأصناف، حيث أطلقعلى الاعتقاد "بيانا ثانيا"، وقال عن الخطاب الشفوي "بيانا ثالثا"[42]، وأشير هنا إلى أن عملية الانتقال من المرحلة الذهنية إلى المرحلة الإنجازية، ضرورة حتمية عند ابن وهب، لا تستقيم الحياة إلا بها.

وعلى الرغم من أن هناك قضايا مشتركة بين أنواع الخطابات جميعها، في كلا المرحلتين، مثل صفتي الحق والباطل، يقول ابن وهب: "وليس في فنون القول ما يقع به الصدق والكذب غير الخبر والجواب، إلا أن الصدق والكذب يستعملان في الخبر، ويستعمل مكانهما في الجواب الخطأ والصواب، والمعنى واحد، وإن فرّق في اللفظ بينهما، وكذلك يستعمل في الاعتقاد في موضع الصدق والكذب، الحق والباطل، والمعنى قريب من قريب"[43]، ومنها العقل، الذي نجده يذكره في كل الأنواع الخِطابية، بغض النظر عن المرحلة التي تنتمي إليها، فقد ذكره في خطاب الاعتبار، وفي خطاب الاعتقاد، وفي خطاب العبارة[44]، إلا أن لكل مرحلة منهما خصائصها، فالمرحلة الذهنية مرحلة مشتركة بين جميع الناس، لأنها تعتمد على قدرات العقل، وما تنتجه لنا من خِطابات يكون ثابت الصورة، محدد الهيئة، لا يختلف باختلاف الناس،

المنارة للاستشارات

ولا باختلاف الأزمان، وهذا الثبات نفسه يعد ضرورة من حيث إن هذه الأنواع الخِطابية في هذه المرحلة القاعدية، هي التي تتبني عليها أنواع الخِطابات في المرحلة الموالية، فلو كانت غير ثابتة، لَمَا انضبطت خِطابات المرحلة الإنجازية، ولخطورة هذه المرحلة، وضع لها ابن وهب القوانين العامة التي تحكمها، في محورين اثنين، هما:

- محور اكتساب المعرفة: والمعرفة هي المادة الأولية لتصور الخطاب، ويظهر عنده هذا البعد – اكتساب المعرفة – في النوع الأول من الخطاب (الاعتبار)، حيث ذكر أن المعرفة سبيلها إما (الحس)، وإما (العقل)[45]، وهذا هو المنهج الوسط في هذه القضية، التي أسالت كثيرا من الحبر بين الفرق الكلامية قديما، وبين المفكرين والفلاسفة حديثا.
- محور تحويل المعرفة: وهو تحويل هذه المعرفة إلى قناعة، لتكون قابلة لتشكيل الخطاب، وهذه الخطوة شبيهة بتحويل أي مادة أولية إلى شكلها الاستهلاكي، فالمعرفة لا بد أن تنتقل عند الإنسان من مجرد مادة معرفية إلى صورة تجعلها قابلة للاستعمال في إنتاج الخطاب، ومن ثَمَّ حدّد ابن وهب ثلاثة أشكال تأخذها المعرفة في هذه المرحلة التأسيسية هي: "حقلا شبهة فيه، وعلم مشتبه يحتاج إلى تقويته بالاحتجاج فيه، ومنه باطل لا شك فيه"[46].

وهنا يستقل (العقل) بتكوين الخطاب، إذ يكون الخطاب متحررا من سلطة اللغة، لأنه متى ما أصبح تحت رحمتها، أخضعته لقوانينها، وبالنظر لمواصفات الخطاب في العبارة نجد بعضها ينتمي إلى مجال العقل، وبعضها ينتمي إلى مجال اللغة.

ويمكن أن نقول أيضا إن هذه المرحلة تمثل (الكلام النفسي)، في مقابل المرحلة الإنجازية التي تمثل (الكلام اللفظي)، وهو تقسيم عُرِف عند المفكرين العرب

المنارة للاستشارات

القدماء[47]، الذين يؤكدون أن الكلام النفسي لا يختلف بالأوضاع واللغات[48]، كما يمكن أن نفهم – من خلال ترتيبه لأنواع الخطاب – أنه يقر بأسبقية الخطاب النفسي للخطاب الكلامي، وهي الفكرة التي أقام عليها عبد القاهر الجرجاني نظريته في النظم.

وفكرة ذهنية الخطاب نجد لها مؤيدين من اللسانيين المحدثين، فهذا (جونسون ليرد) يرى أن الخطاب نموذج ذهني، يشارك في بنائه المتكلم والمخاطب، ويتسم هذا النموذج بسمتين أساسيتين، سمة الجزئية، وسمة الحركة[49].

أما المرحلة الثانية فهي المرحلة الإنجازية، فتتميز عن سابقتها، بجملة من القضايا، منها أن وظيفتها الأساسية هي إظهار قصد المتكلم، هذا القصد الذي يكون في حكم العدم، رغم وجوده فعليا داخل عقل المتكلم، وهذا من منطلق أن الخطاب في هذه المرحلة "إنما وُضع ليُعرف به مراد القائل"[50]، كما تتميز بدخول عنصر اللغة "واللغة في الخطاب لا تعدّ بنية اعتباطية، بل نشاطا لأفراد مندرجين في سياقات معينة"[51]، واللغة أيضا هي أداة الخطاب كما نعلم، وكما يقول بنفنست إننا حينما نصف اللغة بأنها أداة، فنحن لا نريد بذلك تشييئها بحيث تصبح مساوية للفأس والقادوم والآلات التي يصنعها الإنسان، فاللغة تختلف من حيث طبيعتها عن كل الآليات الموجودة في حياة الإنسان؛ لأن الإنسان ينشأ ذاتا داخل اللغة وعبرها؛ فللغة وحدها تؤسس مفهوم (أنا) في الواقع، وذلك في واقع اللغة، وهو ذاته في واقع الوجود"[52]، ومما تنفرد به اللغة هو قابليتها للتغير، والتطور، والاختلاف، فلكل مجموعة بشرية لغتها، ولكل لغة قوانينها الخِطابية، وأشير هنا إلى أن ابن وهب رغم تأكيده أن هذا النوع من الخطابات (الخطاب اللغوي) يتأثر بطبيعة قواعد وقوانين اللغة التي يتشكل بها، فإنه يركز طبعا على اللغة العربية، التي هي لغته، ولغة متلقي

المنارة للاستشارات

كتابه، يقول في باب تأليف العبارة: "اعلم أن سائر العبارة في لسان العرب، إما أن يكون منظوما، أو منثورا"[53]، وهذا دليل على أنه يسلم أن العبارة في غير العربية تأتي على أشكال أخرى، إلا أنه يقرّ أن هناك كليات لغوية عامة "للسان العرب وغيرهم"[54]، ومن هذه الكليات شكلا الخطاب (الخبر والطلب)، وهذا يذكرنا بما قام به كل من براون، ويول، في كتابهما الرائد في تحليل الخطاب (Discourse Analysis) الذي أصدراه عام 1983م، من اختزال لوظائف اللغة في اثنتين: الوظيفة النقلية، والوظيفة التفاعلية[55]، وهما وظيفتان يقوم بهما الخطاب في صورتيه الخبرية بالنسبة للوظيفة الأولى، وبصورته الطلبية بالنسبة للوظيفة الثانية.

وكل خطاب مهما كانت لغته التي صيغ بها، لا يخرج عن هذين المحورين، ثم إن لكل محور قوانينه في لغته، وبعدما أورد ابن وهب ما يدخل تحت كل نوع من الخبر والطلب، قال: "فهذه أقسام العبارة التي يتساوى فيها أهل اللغات في العلم بها"[56]، ثم أخذ يذكر ما يخص اللغة العربية، من اشتقاق، وتشبيه، ولحن، ورمز، واستعارة، وأمثال، ولغز، وحذف، وصرف، ومبالغة، وقطع، وعطف، وتقديم، وتأخير، واختراع. كما يتميز الخطاب في هذه المرحلة بسمة (التفاعلية) من جراء تموقع اللغة في الوسط المقامي، مما ينتج خطابا حيويا محكوما بمعايير اجتماعية، كما أنه محكوم بقوانين خِطابية.

وتشترك المرحلتان الذهنية والإنجازية في كون ما تنتجاه من أنواع الخطاب يتسم بـ(الظاهر والباطن)[57]، بمعنى أن الخطاب مهما كان نوعه، فإما أن يكون المراد منه واضحا بيِّنا، يظفر به المتلقي دون عناء، وإما أن يكون المراد منه خفيا، يحتاج إلى إعمال الذهن من المتلقي[58]، وقد دافع كثير من اللسانيين المحدثين عن هذه الفكرة، وهي أن غاية التواصل البشري هي أساسا إنتاج المعنى وتأويله، وأن جزءا كبيرا من

المنارة للاستشارات

المعنى ضمني، أو بصفة أصح أن المعنى تأليف بين الصريح والضمني، وبين الواعي وغير الواعي[59]، مع العلم أن ابن وهب لم يقصد بالضمني إلا ما يسميه المحدثون بـ(الضمنيات الدلالية)، في مقابل (الضمنيات التداولية).

كما أن ابن وهب من خلال بيانه أنواع الخطاب – خاصة الخطابات الرسمية[60]– ينفي هيمنة اللغة باعتبارها مجموعة من القوانين والآليات، على تشكيل الخطاب، ويفسح المجال لعناصر أخرى تشارك اللغةَ في إنتاج الخطاب، ومن هذه العناصر الذات المتكلمة في بعدها الفردي، وكذا في بعدها السسيولوجي، من خلال طبيعة الوظيفة، وطبيعة الهدف، وزمان الخطاب ومكانه، والذات المتلقية، والمكانة الاجتماعية، وهو بذلك يكون قد تجاوز المفهوم الضيق للخطاب/النص، كما فعلت اللسانيات الحديثة، حيث نادت بتجاوز المفهوم الفيلولوجي للنص/الخطاب، باعتبارهما محكومين بالبعدين الكتابي والشفوي، وهما في تقابل مستمر، وتمثل هذا التجاوز بجعلهما شيئا واحدا، يمتد إلى خارج اللغة، مبتعدا عن صفتي الشفوية والكتابية، واستبدالهما بمفهوم (الركيزة Support)، لتخلص إلى المفهوم التالي للنص/الخطاب: أنه "متوالية لغوية وأمبريقية قد تمت المصادقة عليها، ويعتبر إنتاجا في إطار حركة اجتماعية محددة، وهو ثابت بالاعتماد على ركيزة ما، وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون النص مكتوبا أو منطوقا، أو مقدما بأنظمة تقليدية مثل لغة المورس والآسكي، كما يمكن أن يظهر في شكل سيميائي"[61].

جدلية النص والخطاب عند ابن وهب: إنه من القضايا الشائكة في الدراسات اللسانية الحديثة تحديد المفاهيم وضبطها لكثير من المصطلحات، وعلى رأسها مصطلحا الخطاب والنص، إذ اختلف الدارسون في تحديد العلاقة بينهما، بعدما اختلفوا في تحديد مفهوم كل منهما، فهناك من الدارسين من يعتبرهما مصطلحين

المنارة للاستشارات

لمفهوم واحد، فيقيم هذا مكان ذاك، ولا يرى أي فرق بينهما، ومنهم غريماس Greimasمن الغربيين، ومحمد خطابي من العرب[62]، وهناك من يقر الفرق بينهما، على أساس ان كل مصطلح يستقل بمفهومه، وهذا الفريق ذهب مذاهب شتى في إثبات الفرق بينهما، فهناك فئة نظرت إليهما على أساس تكاملي، بحيث يمثل النصُّ الشكلَ، والبنيةَ السطحية الظاهرة، ويمثل الخطابُ مضمونه الباطن، وبنيته العميقة، ومن هؤلاء روجر فاولرRoger Fowler، وفئة أخرى خصت النص بعملية التلقي، وخصت الخطاب بعملية الإنتاج، ومن هؤلاء ليتشLeech، وشورت، وفئة ثالثة ترى أن الخطاب هو السياق التداولي الذي يجري فيه النص، ومن هؤلاء فان ديك VanDijk، وفئة أخرى تحدد الفرق بينهما من خلال المظهر، فما كان قولا فهو نص، وما كان مكتوبا فهو خطاب، ومن هؤلاء بول ريكورPaul Ricoeur[63].

ولا يهمني هنا تحليل ومناقشة هذه الاتجاهات، والوقوف على ما جاءت به، وإنما الذي يهمني هو ما اتفقت عليه كل هذه الاتجاهات من أن مفهوم النص/الخطاب ما فتىء يتعمق ويتسع يوما بعد يوم، بفضل عامل حاسم ومهم هو تداخل المجال اللساني مع تخصصات جوارية متعددة، وكلما حدث تقارب ما بين المجال اللساني وعلم من العلوم – خاصة الإنسانية منها – إلا وظهرت نتائج هذا التداخل في مفهوم النص/الخطاب، ومن ثَمَّ تطور مفهوم النص/الخطاب[64] من كونه علامة لغوية[65]، أو تركيب لغوي[66]، أو كما نظرت إليه نظرية أفعال الكلام على أنه فعل كلامي[67]، إلى كونه "وحدة مركبة من أبعاد عديدة، ومستويات مختلفة، يتعلق بعضها ببعض، وتتشكل في إطار التواصلوالتمشيات العرفانية"[68]، وذلك ما يرجح عندي وجهةنظر المدرسة الفرنسية، التي عبّر عنها (غيسبان Guespin) وهي "أن النظر في النص من حيث بنيته يجعل منه ملفوظا، أما الدراسة اللسانية لشروط إنتاج هذا النص

المنارة للاستشارات

فتجعل منه خطابا"[69]،وبالنظر إلى ما جاء عند ابن وهب من أصناف مختلفة للخطاب النفسي منه والكلامي، المكتوب والمسموع، الفني منه والعامي، يتضح أنه يعطي الخطاب (البيان) صلاحية الهيمنة على الاتجاهات التشطيرية، التي تحاول أن تميّز بين النص والخطاب، وتجعل كل واحد منهما ندا للآخر، وابن وهب بصنيعه هذا يمرر رسالة مفادها أن الخطاب الذي يقوم على وظيفة البيان هو الخطاب الحق، بغض النظر عن شكله ومظهره، والدليل على ذلك أنه يخضع لشروط واحدة، مهما كانت صورته وهيئته (شروط بنائية، وشروط دلالية، وشروط تداولية)، وقد أقر: أن "الكلام إنما وُضِع ليعرف به السامع مراد القائل"[70]، ولا عبرة بعد ذلك باللغة التي يخرج بها الخطاب، إن هو أخطأ هدفه الأساس، "فإن كلمه بما لا يعرفه، فسواء عليه أكان ذلك بالعربية أم بغيرها"[71].

ولقد اهتم ابن وهب – كما فعل الباحثون المحدثون – في تقسيمه لأنواع البيان/الخطاب بمقاييس متعددة، هذا التعدد تبرزه طبيعة مجال لسانيات الخطاب، إذ هو مجال كما يرى باختينBakhtine، لا يمكن للساني أن ينفرد بدراسته، ولا عالم الأصوات، ولا عالم الأدب، لكونه يقع في المنطقة التي تتشابك فيها هذه المعارف وتتقاطع[72]، مثل:

– شكل الخطاب: نفسي (الاعتقاد)، لفظي (العبارة)، غير لفظي (إيماء، إشارة).

– مستوى الخطاب: أدبي (شعر ونثر)، عامي (الحديث).

– بنية الخطاب: ترتيب المعلومات داخله، ويظهر ذلك خاصة في الخطابات الإدارية التي أوردها.

– طرق الإخبار: سرد، وصف، حجاج، خطب، قصيد، رسائل.

المنارة للاستشارات

– المقام التواصلي (هدف الخطاب، علاقة التخاطبين): أنواع الخطابات الرسمية، كاتب حساب، كاتب الديوان...الخ.

وبذلك يكون ابن وهب قد أتى على جميع الأنماط التي ذكرها اللسانيون المحدثون، وذلك بفضل تعدد المقاييس التصنيفية للخطاب، مع العلم أن هذه المقاييس لم تستقر بعد في الدرس اللساني الحديث، وذلك لتعدد الاتجاهات اللسانية التي تقارب موضوع الخطاب، فلكل اتجاه قاعدته الإبستيمولوجية[73]، مع العلم أن ابن وهب جعل الخطاب الشفوي هو الأصل، وكل ما عداه فرع، يقول في باب الوحي: "وأما الوحي فإنه الإبانة عمّا في النفس بغير المشافهة، على أي معنى وقعت من إيماء، وإشارة، ورسالة، وكتابة"[74].

كما يمكن إدراك وعيه بعلاقة النمط بنوع البنية، إذ رغم وجود قدر مشترك بين أنواع الخطاب، إلا أن ثمة متغيرات تخصّ كل نمط، وتلازمه[75].

وقد أشار إلى بعض المعايير التي يجب توافرها في الخطاب حتى يسمى خطابا، وهي من القضايا التي كنت أنوي تتبعها عنده –ولم أفعل– خشية الإطالة، ومن المعلوم أن المحدثين–خاصة دوبوجراند Robert Alain de Beaugrand ودريسلر Wolf Gang Dresslar–، قد حددوها بسبعة: التماسك، والحبك، والقصد، والقبول، والإعلام، والموقف، والتناص[76].

طبيعة مقاربة ابن وهب للخطاب: بما أن الخطاب من المفاهيم التي تداولتها تخصصات كثيرة، فقد أصبح من الاتساع بحيث يشمل كل الدراسات القطاعية التي سبقته، كقطاع الأصوات، وقطاع الصرف، وقطاع التركيب، وقطاع النص، وقد اتضح هذا الأمر في تشعب مناحيه، وتعدد زواياه، فبات من الصعب الإلمام بها جميعا، وما فتئ مؤسسوه يحاولون الوصول إلى مقاربة متكاملة دون الفلاح في ذلك،

المنارة للاستشارات

بل إن الأظهر في مضمار الدارسين المحدثين في جانب دراسة الخطاب هو تركيزهم على جانب، واغفالهم جانب آخر، ومن ثَمَّ تعددت مقاربات الخطاب بشكل ملفت للنظر.

وهدفي في هذا العنصر هو الوقوف على طبيعة مقاربة ابن وهب لهذا الخطاب، ولا يتسنى لي تحقيق ذلك إلا بعد تقديم عرض موجز لأهم الزوايا التي وصل إليها الدرس الحديث في معالجة الخطاب. ومن المؤكد أن طرائق المقاربة تعتمد على تحديد مفهوم الخطاب ذاته، وبما أن ذلك ليس محل اتفاق بين الدارسين، فإننا نجدهم يختلفون في تحديد أنواع المقاربات، فمثلا الباحث سارفاتي Sarfati، تكلم عن مقاربتين، اعتمادا على أن الخطاب هو ملفوظ متكون من مبنى، ومن دلالة، مقاربة أكثر تركيبية، ومقاربة أكثر دلالية[77]، أما (فان ديكVanDijk)فارتقى بها إلى ثلاث: مقاربة تركز على بنية النص، ومقاربة تدرس الخطاب في بعده المعرفي والتواصلي، ومقاربة تدرسه في بعده الاجتماعي والثقافي[78]. وقد وصلت عند ميشال أدم (ADAM, Jean-Michel)إلى ست، وهي: المقاربة اللغوية (Approche langagière)، والمقاربة التواصلية (Approche communicationnelle)، والمقاربة الحوارية التفاعلية (Approche dialogique et interactionnelle)، والمقاربة العامة(Approche générique)، والمقاربة الأسلوبية (Approche stylistique)، والمقاربة النصية (Approche textuelle)[79]، وتجاوز بها عمر بلخير هذا العدد بكثير، حتى أوصلها إلى أربع عشرة مقاربة، كل مقاربة تعزى إلى عَلَم لساني أو أكثر، أو إلى مدرسة لسانية ما، ومنها: المقاربة التلفظية (إيميل بنفنست)، والمقاربة التبليغية (ياكبسون)، والمقاربة التباينية (لايبوف)، والمقاربة الحوارية وتعدد الأصوات (باختين)، والمقاربة التفاعلية

المنارة للاستشارات

بفرنسا وسويسرا (رولي، أوركيوني، موشلر، سبربر، ولسن)، ومقاربة إثنوغرافيا التواصل (هايمز)، ومقاربة الأعراف الاجتماعية (بيير بورديو)، ومقاربة تحليل المحادثة (الولايات المتحدة الأمريكية)[80]، وغيرها.

ولا أسعى هنا إلى الوقوف على خصائص كل مقاربة على حدة، ولكنني أقول إن بعض هذه المقاربات اقتصر على جانب واحد في الخطاب، وأهمل الجوانب الأخرى، والبعض الآخر كان أكثر اتساعا، وأرحب مجالا، من مثل المقاربة التفاعلية، والمقاربة التداولية، مع الإشارة إلى أن كثيرا من هذه المقاربات لا تتعارض، بل على العكس من ذلك، فهي تتكامل في تغطية مجال تحليل الخطاب الشاسع بطبعه، وعليه ارتأيت أن أتابع السمات التي تميزت بها مقاربة ابن وهب، ومقارنتها، أو ربطها بهذه المقاربات الحديثة.

والملاحظة المنهجية الأولى التي أقدمها، هي أن مقاربته تميزت بالتكامل على محورين، هما:

- محور نوع الخطاب: إذ تعرض لكل أصناف الخطاب، اللغوية وغير اللغوية، ثُمّ هو في الصنف اللغوي لم يغفل قسما من أقسامه، فذكر الشفوي، والكتابي، وتحت كل قسم ذكر فروعه التي تندرج تحته، من مثل: النثر، والشعر، والحديث، ويعد هذا العنصر الأخير من الانجازات العظيمة لابن وهب في كتابه البرهان، ويُطلق عليه اللسانيون المحدثون (المحادثة) أو (الحوار).
- ومحور جهة الدراسة: إذ درس الخطاب بمستوياته المختلفة: البنية (أصوات، صرف، تركيب، معجم)، والدلالة: (المعنى)، والتداول: (المقام، القصد).

ومن ثَمّ جاءت مقاربته ثرية ومتنوعة، حتى إننا يمكن أن نتكلم عن مقاربات بدل مقاربة واحدة، ومما يرجح تعدد المقاربات عنده، قوله: "فأما أدب الحديث فإن أصله

المنارة للاستشارات

وعمدته وبهاءه وزينته اتقاء الخطأ فيه والزلل واللحن والخطل، ثُمّ أن يكون حقا سالما مما يهجنه من معايب القول...ثُمّ أن يقدّر المحدّث مقدار كلامه، ومقدار نشاط مستمعه"[81]، إذن هي ثلاث، وهذا ما يجعلنا نجزم أنها كانت في جانب منها (تفاعلية)، في شقها الإثنو اجتماعي[82]، الذي يكون التركيز فيه على معرفة الاستعمال اللغوي، وعدم الاكتفاء بالمعرفة بقواعد اللغة، وهو ما اجتهد فيه ابن وهب من خلال تجاوز مستوى القواعد اللغوية، سواء أكانت أصواتا، أم صرفا، أم نحوا، إلى طرائق الاستعمال، وما تقتضيه السياقات المختلفة لكل نوع من أنواع الخطابات. كما كانت في شق آخر مقاربة لسانية، وكانت في شق ثالث مقاربة تداولية، وبما أن هاتين الأخيرتين هما الأظهر عنده، من منطلق –كما يرى محمد العمري– أن نزعة ابن وهب العملية أقوى من نزعته الأدبية والبلاغية[83]، فإنني سأركز عليهما.

المقاربة اللسانية (Approche linguistique): أكد ابن وهب على ضرورة توافر الكفاءة اللسانية، والتي لا تتحقق إلا من خلال المعارف اللغوية، إذ هي ذلك الاستعداد الذي يملكه المرء للتحكم في استعمال قواعد اللسان في مقامات مختلفة[84]، ولم يكتف ابن وهب بالتأكيد على ذلك، بل حاول أن يحصر المادة اللغوية في جميع المستويات اللسانية، ويقدمها لنا في ثنايا كتابه، وتجلى ذلك بشكل لافت للنظر في باب العبارة[85]، حيث قدّم لنا المعارف اللسانية بشكل منهجي، فبدأ بما "هو عام للسان العرب وغيرهم"[86]، ثم ثنى بما هو خاص باللغة العربية، حيث ذكر في القضايا اللسانية العامة الأساليب الموجودة في الخطاب الإنساني عموما، بغض النظر عن اللغة التي يظهر بها، وهي (الطلب والخبر)، ثُمّ ذكر ما يخصهما باقتضاب، ثم عرض بعدها المعارف اللسانية الخاصة بالمتكلم العربي، ووقع اختياره على الأبواب الآتية[87]: الاشتقاق، والتشبيه، واللحن، والرمز، والوحي، والاستعارة، والأمثال، واللغز،

المنارة للاستشارات

والحذف، والصرف، والمبالغة، والقطع، والعطف، والتقديم والتأخير، والاختراع، ثُمّ قدّم لنا مسائل المعرفة اللسانية الضرورية من كل عنصر، ويبقى التساؤل مطروحا هنا عن نوع القضايا التي اختارها ابن وهب، والمعيار الذي تحكَّم في ذلك، ونوع المسائل التي انتخبها في كل عنصر، وحقيقة الترتيب الذي عرضها به، ولكن الشيء الذي نستطيع تأكيده هو أن ما ذكره هو الحد الأدنى الذي يجب توافره في هذه الملكة اللسانية، وهو في الوقت نفسه الحد المشترك بين جميع أنواع الخطابات، فهو يقول في باب المجادلة: "وأن يجتهد في تعلم اللغة ويتمهر في العلم بأقسام العبارة"[88]، ثُمّ يأتي نوع آخر من المعارف اللسانية يفرضه نوع الخطاب، فالخطاب الشعري مثلا إلى جانب احتياجه إلى معارف نحوية، وبلاغية، فهو يحتاج إلى تعلم العروض، ورواية الشعر[89]، والخطيب يحتاج معرفة السجع، ومواضعه[90]، وصاحب المعمّى في باب الخطاب المكتوب يحتاج إلى معرفة بعض المسائل الصوتية، مثل معرفة الحروف وما يكثر اقترانها به، وكذا معرفة مخارجها وصفاتها[91].

كما أشير إلى أن هذه المعرفة اللسانية قد تختلف نسبتها من خطاب إلى آخر، وقد يختلف نوعها أيضا، يقول ابن وهب في باب الخطاب الكتابي: "ثُمَّ إن في الكتاب أشياء من باب اللغة ينبغي أن نذكرها؛ لأن الكاتب غير مستغن عن علمها"[92]، فكاتب الخط مثلا يلزمه أن يعرف "من النحو المقصور والممدود، والمذكر والمؤنث، وحكم الهجاء، وما يسلم معه من اللحن، والخطأ"[93]، كما كان ابن وهب حريصا على التنبيه في كل نوع خطاب على ما يفسد جانبه اللساني، فذكر في الخطاب الشفوي خطر اللحن، وذكر في الخطاب الكتابي خطر الخطأ في الرسم، وذكر في الخطاب الحواري مضرة الغريب من الألفاظ، والمنكر منها، بل إنه أحيانا – إمعانا في الدقة – يذكر حتى الأشياء التي لا يحتاج إليها صاحب خطاب ما، كما فعل مع كاتب

المنارة للاستشارات

الحساب، إذ بعدما عرض أهم أصناف هذا النوع، قال: "والذي يعم هؤلاء أنهم غير محتاجين إلى معرفة اللغة والإعراب؛ لاجتماع الناس في هذا الوقت على تركها في الحساب"[94].

وقد حظي الجانب اللساني باهتمام بالغ من قبل ابن وهب، لأنه مقتنع أن الخطاب "أصله وعمدته وزينته اتقاء الخطأ فيه والزلل واللحن والخطل"[95]، وهذه الكفاءة اللسانية كما تأتي بتعلّم القواعد في مستويات اللغة المختلفة، تأتي من المخالطة اللغوية لأصحاب الكفاءات اللسانية العالية، فـ"ليس شيء أعون على جزالة الكلام، وخروجه من تحريف العوام، من مجالسة الأدباء، ومعاشرة الفصحاء، وحفظ أشعار العرب ومناقلاتهم والمختار من رسائل المولَّدين والأدباء ومكاتبتهم"[96].

المقاربة التداولية (Approche Pragmatique): كما أن مقاربته من جهة ثالثة، مقاربة تداولية، وذلك من منطلق أن اللغة في حالة الخطاب لا تستغني عنالمعايير غير اللغوية، ومن ثَمَّ فإن الخطاب لا يمكن أن يكون موضوع تناول لسانيّ صرف[97]،ومن منطلق أيضا أن" تحليل الخطاب يسعى إلى الانطلاق من النص لاستكشاف التحديدات الاجتماعية والايديولوجية التي أنتجته"[98]، وهو ما يعرف في الدراسات التداولية بالسياق، والذي يتكوّن من عناصر متعددة، مثل المتكلم، والمخاطب، والمشاركين،والموضوع، والقناة، والمقام، والسنن، وجنس الرسالة، والحدث، والقصد، حسب تصنيف هايمسHymes، والتي يمكن اختزالها في: المتكلم، والمخاطب، والرسالة، والزمان والمكان، ونوع الرسالة، في رأي براون، ويول[99]، وقد كان ابن وهب يذكر في كل نوع من أنواع الخطابات –إضافة إلى الجانب اللساني الذي سبق ذكره– جانبين اثنين هما:الكفاءات غير اللسانية، واستراتيجيات الخطاب.

المنارة للاستشارات

الكفاءات غير اللسانية(compétences non–linguistiques): حيث ذكر أنواعا للكفاءات غير اللسانية، وهي: الكفاءة العقلية، والكفاءة المعرفية، والكفاءة الخُلُقية، والكفاءة التواصلية، وقبل توضيح ما جاء عنده في ذلك، نشير إلى أن اللسانيين المحدثين تعرضوا لأنواع الكفاءات، وكثير منهم يجعلها تنضوي تحت الكفاءة التواصلية، على اعتبار أنها تمثل التقاء كل الكفاءات الفرعية، فمثلا (فان ديكVanDijk) يرى أن القدرة التواصلية لا تتحقق عند الفرد، إلا إذا توافر عنده خمس ملكات: الملكة اللغوية، والملكة المنطقية، والملكة المعرفية، والملكة الإدراكية، والملكة الاجتماعية[100]. والتقسيم الذي أوردته يبدو لي أكثر تناسبا.

الكفاءة العقلية: يمكن أن نؤكد بداية أن هذه الكفاءة تتجلى بشكل واضح في المرحلة الأولى من تشكِّل الخطاب، حسب نظر ابن وهب، وهي مرحلة (الاعتبار)، التي تعتمد اعتمادا كبيرا عليها، وهذا لا يعني غيابها التام عن مراحل تشكّل الخطاب الأخرى.

وهذه الكفاءة هي أساس في كل الكفاءات الأخرى، بما فيها اللسانية، ولا عجب في ذلك فالعقل هو مناط التشريف الذي خُصّ به الإنسان، ولذلك حث الله تعالى الإنسان على الحفاظ عليه، بل وعلى استثماره وتوظيفه بالشكل الذي يعود به بالنفع على صاحبه[101]، والعقل هو الآلية الأولى التي تفكك الخطاب وتحلله، "فإذا تفكّر الإنسان وقدّر ونظر...تبيّن له ما يريد أن يتبيّنه، وظهر له معناه وحقيقته"[102]، وتزداد أهمية هذه الكفاءة كلما نحا الخطاب نحو التلميح، وغلبت عليه صبغة الرمز، وذلك موجود في جميع أنواع الخطابات، "فكل هذه الأقسام التي ذكرناها من البيان لا تخلو أن تكون ظاهرة جلية، أو باطنة خفية"[103]، والباطن هو ما احتاج إلى أن يستدل عليه بضروب الاستدلال، وأن يستعمل في ذلك آلية القياس[104]، وهي آلية عقلية بامتياز،

المنارة للاستشارات

ولا يستحسن من صاحب الخطاب أن يرسل خطابه إلا بعد أن "يخمّره التدبر والتفكير"[105]، فـ"لا يبتدئ كلامه إلا بعد أن يتروّى فيه"[106]، وحتى إذا ما أراد المتكلم أن يُنيب عنه غيره في تبليغ الخطاب، فعليه أن يختار "أفضل من يحضره في عقله وضبطه"[107]، لأنه –كما ترى اللسانيات الحديثة– حينما تتكلم عن (الخطاب المرويّ) –وبعضهم يفضل مصطلح (الخطاب الممثَّل)– تجعل إشكالية الخطاب المروي هي تفتّح المجال باستمرار على مجموع ظواهر تعدد الأصوات، وعدم التجانس[108].

وإنه مما يجعل الخطاب المكتوب يَفْضُل في بعض جوانبه الخطاب الشفوي هو استثمار الكاتب لهذه الكفاءة العقلية أكثر من المتكلم في المقام التخاطبي المباشر، فـ"استعمال القلم أجدر أن يحضر الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام"[109].

وتتأكد أهمية هذه الكفاءة في نوع من الخطاب اتمثل الخطابات الإدارية، التي تتعلق بها مصالح الناس، من مثل (كاتب الديوان)، الذي "يحتاجمع ما قدمنا من الأوصاف أن يكون جيد الفهم، صحيح الذهن"[110].

الكفاءة المعرفية: هي الكفاءة المهمة الثانية، وبدونها لا يمكن أن تؤدي الكفاءة العقلية دورها، ما لم يتوافر لديها مادة معرفية قاعدية، وهو ما تنتجه لنا المرحلة الثانية من تشكيل الخطاب، وهي مرحلة (الاعتقاد)، التي تهيئ المادة المعرفية اللازمة والمناسبة لطبيعة الخطاب الذي يريد المتكلم إنشاءه، وكل نوع من الخطاب له مادة معرفية تخصه، كما له مادة معرفية تشاركه فيها الأنواع الخطابية الأخرى، وتختلف نسب هذا التقاطع اتساعا وضيقا، ويمكن تقسيم هذه المعرفة قسمين كبيرين: معرفة عقلية، ومعرفة نصية، فالأولى ينتجها صاحب الخطاب من خلال استثمار الكفاءة العقلية مع كليات المنطق، والثانية يستقبلها العقل من خارجه، ثم يقوم

المنارة للاستشارات

بتشكيلها التشكيل الذاتي، الذي يسمح بعد ذلك بتوظيفها في خطاب تواصلي، ولم يأل ابن وهب جهدا في بيان مسائل نموذجية من كلا النوعين (القياس، والخبر)[111]، كما بيّن أنواعها من حيث القيمة التي تحملها، فهي إما "حق لا شبهة فيه، وإما علم مشتبه يحتاج إلى تقويته بالاحتجاج فيه، ومنه باطل لا شك فيه"[112].

ثمّ إن هناك نوعا من المعرفة يتعلق بشكل مباشر بطبيعة الخطاب، وتتجلى فيه خصائصه ومزاياه، ومن النماذج التي تمثل هذا البعد عند ابن وهب، كلامه في الخطاب المكتوب عن أنواع كاتب الحساب، وهي: كاتب مجلس، وكاتب عامل، وكاتب جيش، حيث ذكر أن الأهم عند هذا النوع من الكتاب، توافر المعرفة الحسابية عنده "والحساب الذي يحتاج إليه الكتاب هو خمسة أشياء: الجمع، والتفريق، والتضعيف، والتصريف، والنسبة"[113]، بل ذهب إلى أبعد من هذا حين حدد ما ينفرد به كل واحد من أصناف كاتب الحساب، إضافة إلى المعرفة الحسابية المشتركة بينهم، يقول: "وهاهنا أشياء تخص كل واحد من كتاب الحساب يحتاج إلى معرفتها فيما هو بسبيله دون غيره"[114]، ثم أخذ يعدد ما يحتاجه كلّ واحد منهم. كما أنه فعل الأمر نفسهحين ذكر كاتب الديوان، حيث قال: "وأما كاتب الديوان فيحتاج مع ما قدمنا من الأوصاف أن يكون...قد عرف أصول الأموال التي تُحمل إلى بيت المال، وأقسام وجوهها، وكيف كان السبب فيها"[115].

الكفاءة الخُلُقية: لم تغب هذه الكفاءة عن ذهن ابن وهب، إذ كان يشير إليها في كل مراحل تكوّن الخطاب، بل وفي كل أنواعه، وسأورد الأظهر منها، ليكون ذلك دليلا على انتباهه لها.

فقد أشار ابن وهب إلى وجوب التزام الحق، والبعد عن الباطل، والحرص على قولالصدق، واجتناب الكذب، والتحلي بالأناة ولين الجانب أثناء المحاورة، "وألا يجيب

المنارة للاستشارات

مَن خاصمه وأغضبه بجواب الغضب والشر"[116]، وألا ينهج نهج المبالغة[117]، وفي كاتب الشرطة قال: "يجمع مع الصلاح أدبا وحكمة"[118]، بل إن أكثر أوصاف الحوار عنده تقوم على الركيزة الأخلاقية، مثل: الصدق والكذب، والنفع والضر، والحق والباطل، والمهم والمفضول[119].

الكفاءة التواصلية: هي من أهم الكفاءات التي يتجلى فيها البعد التداولي، وهي تعنى بتحكيم المتكلم قواعد التخاطب، والالتزام بها[120]،وتأتي هذه الكفاءة في ظل عدم كفاية (الكفاءة اللسانية)، التي نادى بها تشومسكي، إذ تبقى قاصرة في ظل احتكام المتخاطبين إلى قواعد التخاطب، وبعبارة أخرى، هي إتقان المتكلمين السلوكات التي تعرضها مختلف أنواع الخطابات[121]، واهتمام ابن وهب بها جاء نتيجة اقتناعه بالدور التواصلي للغة، وكذا الطابع الاجتماعي للإنسان، ولذلك ما فتئ يذكر ضروريات هذه الكفاءة في أصناف الخطاب التي تعرض لها، بل إن هذه الكفاءة هي الباعث الأساس في تحوّل الخطاب من المرحلة الذهنية إلى المرحلة الإنجازية، كما مرّ بنا آنفا، وهذه الكفاءة تضم كلامه عن المتكلم، وعن السامع، وعن المقام.

وقد ربط الكاتب كثيرا من الظواهر اللغوية بهذه الكفاءة، كظاهرة الحذف مثلا، "فإن العرب تستعمله للإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول، إذا كان المخاطب عالما بمرادها فيه"[122]، كذلك الشاعر يلزمه "ألا يخرج في وصف أحد ممن يرغب إليه، أو يرهب منه...عنالمعنى الذي يليق به ويشاكله...فإن في مفارقة هذه السبيل التي نهجناها...وضعا للأشياء في غير مواضعها"[123]، ويؤكد ذلك في موضع آخر بقوله: " ويخاطب كل مقصود بالشعر على مقدار فهمه، فإنه ربما قيل الشعر الجيد فيمن لا يفهمه فلا يحسن موقعه منه"[124]، والكلام نفسه ردّده في الخطيب وفي

المنارة للاستشارات

المترسل، بحيث يجب أن يكون كلاهما "عارفا بمواقع القول وأوقاته، واحتمال المخاطبين له"[125].

ومما يدخل في هذه الكفاءة جهارة الصوت عند الخطيب، وحسن الخط عند المترسل، وحسن اختيار الرسول عند من يرسل خطابا شفويا[126].

وفي حديثه عن صفات المحاورة، ذكر من بينها ما يتعلق بالجانب التواصلي، كالصواب والخطأ، فالصواب "أن يعرف أوقات الكلام، وأوقات السكوت، وأقدار الألفاظ، وأقدار المعاني، ومراتب القول، ومراتب المستمعين له، وحقوق المجالس، وحقوق المخاطبات فيها، فيعطي كلّ شيء من ذلك حقه"[127].

كما حذّر مما يضر بهذه الملكة من مثل: قول الغريب، والاستسلام لشهوة الاستطراف[128]، وفي باب أدب الحديث ذكر ابن وهب كثيرا من الآداب المتعلقة بالكفاءة التواصلية، من مثل[129]:

- أن يقدّر المتحدث مقدار كلامه، ومقدار نشاط مستمعه.
- ألا يردد القول إذا أعجبه.
- أن يتجنب الأَيْمَان.
- إذا حدث أنصت لمحدثه.
- إذا سئل غيره فلا يسلب الجواب منه.
- يحدث الناس بما يعرفون.
- أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن القول.

وهناك ما يُفهِم من كلامه أن هذه القوانين التواصلية خاضعة للتطور والتبدل، ومن ثَمَّ لا بد على صاحب الخطاب أن يراعي فيها الأعراف الاجتماعية، ومن تلك المواضع قوله في باب (كاتب الخط): "ولمّا كانت الدول في كثير من الأزمان،

المنارة للاستشارات

وبخاصة في زماننا هذا، قد غلب عليها النساء، وصار للرؤساء فيها الخدم والإماء، وكانت لهم أوضاع في المكاتبات، وسنن في الدعاء والمخاطبات، متى خالفها مخالف نسبوه إلى قلة الفهم ونقص العلم"[130]، كما تتطور في الوقت نفسه "وفق تجارب كل فرد"[131].

اسراتيجيات الخطاب: وهو البعد الثاني –إضافة إلى العنصر السابق الكفاءات غير اللسانية– الذي يؤكد البعد التداولي لمقاربة ابن وهب للخطاب، ولذلك لم يغال من الدارسين من نظر لهذه الاستراتيجيات على أنها نتيجة للكفاءة التداولية، التي تضم في نظره خمس ملكات: الملكة اللغوية، والملكة المنطقية، والملكة المعرفية، والملكة الإدراكية، والملكة الاجتماعية[132]. ومما توفره الاستراتيجيات هو مساعدة النص على تحقيق (البنية الكلية)[133]، إذ لكل خطاب بنية كلية ترتبط بها أجزاؤه، ويصل المتلقي إليها عبر عمليات متنوعة تشترك كلها في سمة الاختزال، والمتأمل في عملية تكوّن الخطاب يلحظ أن ظاهرة الاستراتيجيات تلازمه في كل مراحل تكوّنه، أو بعبارة أخرى إن الاستراتيجيات تأخذ المسار نفسه الذي يأخذه الخطاب في مراحل تشكّله، إذ هي أيضا تبدأ في المرحلة الذهنية، وتكتمل في مرحلة الإنجاز، وهي –برأيي– جزء من الخطاب، ولا أقول جزء قابل للانفصال، وإنما هو جزء لا ينفك أبدا عن الخطاب، فالعلاقة بينهما علاقة اشتمال وتضمن، ولذلك عدّها (بونفوسBonnafous، وتورينيTournier) من شروط إنتاج الخطاب[134]، والدليل على ذلك أن مفهوم الخطاب في روحه، ومفهومه العميق يقوم عليها، فإذا كان الخطاب هو "كل منطوق موجّه إلى الغير للتعبير عن قصد المرسل ولتحقيق هدفه"[135]، فتحقيق الهدف يحتاج من صاحب الخطاب إلى تبني استراتيجية تحقق له ذلك؛ فإن هو أخطأها أخطأ هدفه، بل لقد أجمع عدد من الدارسين على أن التوجه

المنارة للاستشارات

لتحقيق الهدف هو ما يجعل من الخطاب فعلا لغويا[136]، بل هذا ما جعل عَلَما مثل (فان ديكVanDijk) يعرف الاستراتيجية "بأنها التصوّر عن أفضل السبل الفعلية من أجل تحقيق الهدف"[137].

وقد حاول كثير من الدارسين تحديد مفهوم الاستراتيجية، ولعل الذي برز في هذا المجال الباحث عبد الهادي الشهري في كتابه (استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية)، إذ عرض مجموعة من المفاهيم، ثم حاول أن يصوغ منها تعريفا جامعا مانعا، وكان له ذلك، فقال في تحديد مفهومها، بأنها "المسلك المناسب الذي يتخذه المرسِل للتلفظ بخطابه، من أجل تنفيذ إرادته والتعبير عن مقاصده، التي تؤدي إلى تحقيق أهدافه، من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية، وفقا لما تقتضيه سياسة التلفظ بعناصره المتنوعة، ويستحسنه المرسل"[138]، فهي إذن مواقف مكيّفة اختيرت من بين مواقف أخرى في فضاء إكراهات الإطارات المقامية، وأهداف العمل[139].

ويمكننا من خلال ذكر بعض الخصوصيات المقامية ربط الاستراتيجيات في الخطاب عند ابن وهب –وحتى عند المعاصرين– بالخصائص المكوّنة لهوية أطراف الخطاب الاجتماعية والذاتية، كما يمكن ربطها أيضا بالبعد الثقافي الذي يحيط بعملية إنتاج الخطاب، ولا ننسى أن كثيرا من التيارات اللسانية المعاصرة تنظر إلى اللغة في حد ذاتها على أنها من أهم العناصر الثقافية، وفي الوقت نفسه فهي من أهم الآليات المنتجة للثقافة، ومن ثمّ تتيح هذه الاستراتيجيات للخطاب أن يكون ممثلا للثقافة التي أنتجته، "لأن الرموز الثقافية لا تنفصل عن الخطابات"[140].

ولقد اهتم ابن وهب – وهو المتقدم زمنا على الدراسات الحديثة – بجانب الاستراتيجيات، التي يتبناها المتكلم في خطابه، وهذا البعد هو الذي يؤكد، إلى جانب

المنارة للاستشارات

العنصر السابق، المقاربة التداولية التي غلبت على كتابه البرهان، ولا أسعى في مثل هذا البحث إلى تتبع كل الاستراتيجيات التي عرض لها، وإنما سأقتصر على أهمها، ومما ذكره ابن وهب من استراتيجيات، استراتيجية اللغز في الخطاب الشفوي، واستراتيجية التعمية في الخطاب المكتوب، واستراتيجية الإيجاز والإطالة، واستراتيجية المجادلة، واستراتيجية الجد والهزل، واستراتيجية السخف، واستراتيجية العيّ، واستراتيجية اللحن، واستراتيجية المسألة، واستراتيجية الاعتذار[141]، ويمكن توزيع هذه الاستراتيجيات المتعددة على أربعة مسارات كبرى، هي تلك التي ذكرها عبد الهادي الشهري، وهي: الاستراتيجية التضامنية، والاستراتيجية التوجيهية، والاستراتيجية التلميحية، واستراتيجية الإقناع[142].

- فالاستراتيجية التضامنية تشمل: الهزل، السخيف، اللحن، المسألة، الاستعتاب، الإطالة، الإيجاز، الإطالة، الحذف.
- والاستراتيجية التوجيهية تشمل: الجد
- والاستراتيجية التلميحية تشمل: اللغز، العي، التعمية.
- واستراتيجية الاقناع تشمل: المجادلة.

وقد بيّن الشهري أن تقسيم الاستراتيجيات بهذا الشكل تتحكم فيه اعتبارات ثلاثة هي: معيار العلاقات التخاطبية، ومعيار شكل الخطاب، ومعيار هدف الخطاب[143].

والذي دعاني للحكم على هذه الظواهر بأنها استراتيجيات في نظر ابن وهب هوما يلي:

- تصريحه في أكثر من واحدة أنها تقع في الشعر كما تقع في النثر، كما هو الحال في (المجادلة).

المنارة للاستشارات

- ذكره الأوصاف التي لا يمكن أن تجتمع في خطاب، لأنه لا يحتمل إلا وصفا واحدا، مثل: الإيجاز، والإطالة، والهزل.
- حرصه حين إيرادها على ذكر المفهوم، والمقامات التي تقع فيها، والسياقاتالتي تستوجبها، وكذا الآليات التي تنجزها، ثم الأهداف التي تحققها، ففي استراتيجية (الهزل) مثلا يقول: "وأما الهزل فما صدر عن الهوى، والناس في استعماله على ضربين: أما الحكماء والعقلاء فاستعملوه في أوقات كلال أذهانهم، وتعب أفكارهم، ليسجموا بها أنفسهم، وأما السفهاء والجهال فاستعملوه للخلاعة والمجون، ومتابعة الهوى"[144].
- قوله وهو يعرض ظاهرة اللحن المذمومة عند جميع الأمم، مبينا المواضع التي يستحسن فيها هذا القبيح، ومنها عند الرؤساء الذين يلحنون، والملوك الذين لا يعربون، "فمن الرأي لذي العقل والحنكة والحكمة والتجربة ألا يُعرب بين أيديهم، وأن يدخل في اللحن مدخلهم"[145].

وينطلق ابن وهب في كل ذلك من قاعدة أن المتكلم – أيِّ متكلم – لا يُصدر خطابا إلا ليُفهم مَن يتلقاه ويضمن تفاعله معه التفاعل المناسب، وتحقيقا لذلك جاءت الاستراتيجيات السابقة، ونفهم ذلك من قوله، بعدما ذكر الاستراتيجيات اللازمة في مجالس العلماء : "وأما مجالس السوقة فليس يخلو مَن عاش بينهم من حضورها، ولا بد للإنسان من ملابستهم فيها، فحق العاقل ألا يلقاهم بكل رأيه، ولا بجميع عقله فيها، وأن يستعمل في مخاطبتهم ومعاملتهم بعض المقاربة لأحوالهم، فإن ذلك أولى بسياستهم...ولا يفتح باستعمال غيره باب النقيض والاحتشام بينه وبينهم، من غير أن يزيد في ذلك على مقدار ما توجبه السياسة، فإنهم متى اجترأوا عليه وطمعوا فيه لحقه من الضرر بذلك أكثر مما يلحقه بانقباضهم عنه"[146]. وعليه تكون الاستراتيجية هنا

المنارة للاستشارات

بتحكيم العقل، وبقراءة جيدة للمقام، ولطبيعة المتلقي، ثم مراعاة كل ذلك، ومتى ما أخطأ المتكلم اختيار الاستراتيجية فإنه يحكم على خطابه بالفشل.

ويؤدي البعد الذاتي دوره في بناء الاستراتيجية، مع الضوابط المحددة لها، ولذلك قال ابن وهب، وهو يعرض استراتيجية التعمية في الخطاب المكتوب: "ولكل إنسان أن يخترع منه ما أحب"[147].

والاستراتيجيات عنده تقوم على مجموعة من الأسس تتحقق بها مقاصد المتكلم التواصلية، وبدا ابن وهب حريصا على تحقيق هذه المقاصد، ولذلك نلقاه كثيرا ما يستعمل أفعالا وتعابير تفيد الإلزام، من مثل: يجب، وعليك،ويلزم، وما في معناها، كما أن هذه الاستراتيجيات في المقاربة الوَهْبِيَّة مظهر من مظاهر (مرونة اللغة)، إذ كما يرى (دومينيك مانجونD. Maingueneau) أن"البنية اللسانية يجب ان تكون مغلقة ومرنة في الوقت ذاته، حتى تتكيف مع مقامات متنوعة تنوعا لا حدود له، ومتجددة باستمرار"[148]، وكما يؤكد (أنطون كيليوليA.Culioli) " أن اللغة نظام، ولكنه نظام مفتوح"[149]، ويتطابق ما ذهب إليه ابن وهب مع ما قرره اللسانيون من أن الاستراتيجيات الخِطابية مرتبطة ببعدين مهمين، البعد الأول هو (الذاتية)، بحيث أن الاستراتيجية راجعة إلى ذات (فردية أو جماعية)، تحمل على اختيار (عن وعي أو عن غير وعي) عددا من العمليات اللغوية، والبعد الثاني هو (الإكراهات)، إذ إن الاستراتيجيات لا تكون إلا في إطار الإكراهات، سواء كانت قواعد، أو معايير، أو مواضعات[150].

وإذا أردنا أن نعرض نماذج من هذه الاستراتيجيات، فلا نجد أحسن من استراتيجية المجادلة، واستراتيجية العي، واستراتيجية اللحن، ففي الأولى بيّن ابن وهب مفهومها بقوله: "أما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد بهما إقامة الحجة فيما اختلف

المنارة للاستشارات

فيه اعتقاد المتجادلين"[151]، ومما يدل على أن هذه الظاهرة استراتيجية قوله عنها: "تدخل في الشعر والنثر"[152]، وأيضا تقسيمه الجدل بحسب ما يحققه من مقاصد إلى محمود ومذموم، ولا يوصف بذلك إلا إذا كان استراتيجية يستعملها المتكلم لتحقيق مراده، كما أنه في باب الاستعتاب حذّر من استعمال الحجة حيث يقول: "ولا تخلط الاعتذار إذا وجب أن تعتذر بالاحتجاج، فإن ذلك يدل على مقامك على الذنب"[153]، وهنا يتضح أنه من الممكن أن تتدافع الاستراتيجيات، وقد يناقض بعضها بعضا، كما أنه من الممكن أن تتكامل –وهو الأصل– كاستراتيجية العيّ واستراتيجية المسألة مثلا.

ثم شرع ابن وهب بعد ذلك في تحديد الضوابط التي تحيط بهذه الاستراتيجية، فذكر ما يقارب خمسة وعشرين ضابطا، منها: عدم التعصب للرأي، وتجنب العجلة، واطراح العُجب، والاجتهاد في تعلم اللغة، وألا يكلّم خصمه وهو مقبل على غيره[154]، ولا يفوتني هنا الإشارة إلى أن كلامه عن الحجاج باعتباره استراتيجية، ينطلق من اللغة، ومن ثَمّ تكون البنى الحجاجية ليست ذات طبيعة منطقية، بل هي من طبيعة لغوية بالأساس، كما نادى بذلك اللسانيون المحدثون، من أمثال (أوزفالت ديكرو Oswald Ducrot)[155]، كما أن كلامه عنها يوحي بأنه على وعي تام بما يجب أن يتميز به الحجاج من الانسجام مع ذاته، ومع الخطاب، وهو ما يطلق عليه في الدراسات الحديثة (الانسجام الحجاجي cohérence Argumentative).

من الملاحظ أن عبد الهادي الشهري حينما عرض لمجهود العرب في هذه الاستراتيجية، ركّز فقط على الجاحظ، والباجي، وابن خلدون، ولم يلتفت لابن وهب[156]، رغم أن ابن وهب ممن حاولوا وضع الضوابط التخاطبية لهذه الاستراتيجية، وتقنينها، ولم يأت في هذه الاستراتيجية من الضوابط عند غيره بقدر ما ورد عنده.

المنارة للاستشارات

وفي استراتيجية العي عرّفها بأنها "ضد البلاغة"[157]، وذكر أنها استراتيجية مطلوبة في مقام المسألة عند الرجال، لأنها تدل على كرم الطبع، وعلى الأَنَفَة من حال المسألة، كما أورد أن العيّ –رغم أنه مذموم في عمومه– مستحسن في النساء؛ لدلالته على الحياء والحشمة عندهن.

وفي استراتيجية اللحن ذكر أنه "ما خالف اللغة العربية وخرج عن استعمال أهلها"[158]، وهو كسابقه مظهر معيب من حيث هو ظاهرة تمس الكفاءة اللسانية، بينما يتحول إلى استراتيجية في مقامات معينة منها "عند الرؤساء الذين يلحنون، والملوك الذين لا يعربون"[159]، لأن الذي يعرب كلامه في مثل هذه المقامات وكأنه يريد أن "يريهم أن له فضلا عليهم"[160]، وهذا ما لا يطيقه هذا الصنف من المتلقين، فهم لا يتحملون رؤية من هم أفضل منهم في رعيتهم،وإذا نحن دققنا في هذه الاستراتيجيات التي ضبطها ابن وهب، فإننا نجدها تقوم على أساسين:

الأول: طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب (المتكلم والمتلقي)، والتي تحكمها ما يسمى حديثا (قواعد التخاطب)، أو (قواعد التبليغ)[161].

الثاني: طبيعة الشخصية للمتلقي: إذ لا بد على المتكلم قبل أن يصدر خطابه أن ينتبه إلى طبيعة المتلقي، فإذا كان في باب المسألة مثلا، فإنه لا يسأل بخيلا، ولا ذا حاجة، وفي باب اللحن لا يكون إلا بين يدي متلق مسؤول ويلحن.

الخاتمة: بعد هذا التحليل الذي قدمته لمجهودات ابن وهب في مجال مفاهيم تحليل الخطاب يتبيّن للقارئ أنه هو مؤسس علم الخطاب في التراث العربي، والذي مكّنه من ذلك، هو انطلاقه من المفاهيم الكلية للدرس البلاغي، بدل الاشتغال بالتفاصيل التي غرق فيها غيره من البيانيين، وقد استطاع ابن وهب بفضل نظرته العميقة واستنادا إلى ما قُدِّم قبله من مجهودات أن يرتقي بالمستويات التي عُرفت في

المنارة للاستشارات

البلاغة العربية (مستوى اللفظ/الفصاحة)، و(مستوى التركيب/البلاغة أو ربط البناء بالدلالة)، إلى مستوى أعم يشمل كل ما سبق، وهو مستوى الخطاب، أين تتفاعل فيه كل هذه المستويات لتحقق لنا فضاء جديدا، وهو فضاء خِطابي، وتجاوُزُه هذا كان تجاوزا واعيا ومقصودا، وهذا ما مكّنه من تسجيل السبق في كثير من قضاياه المفاهيمية والإجرائية على السواء، وبذلك تكون البلاغة –كما تجلت عنده– مرادفا لما يعرف الآن لسانيا بالخطاب، وبذلك نتجاوز النظرة التي تنظر إلى البلاغة بوصفها سابقة تاريخية للسانيات النص، ويمكن أن أجمل أهم ما تميّزت به محاولة الكاتب فيما يلي:

- أنها كانت محاولة متكاملة ومتنوعة في الوقت نفسه، إذ اعتنت بالخطاب بجميع أشكاله المعروفة في زمن ابن وهب، كما اعتنت بمجمل جوانب الخطاب اللسانية منها والتداولية.
- أنها مزجت بين البعد التنظيري، والبعد التطبيقي، مع إعطاء البعد الأول النصيب الأوفر من العناية.
- أنها طرحت مفهوم الخطاب بشكل عميق وشامل، إذ غطى المرحلتين الأساسيتين في تكوّن الخطاب، المرحلة الذهنية، والمرحلة الإنجازية.
- اهتمت ببيان الكفاءات الخِطابية التي يجب توافرها عند صاحب الخطاب، وكانت نوعين، كفاءة لسانية، وكفاءة غير لسانية، ويندرج تحت هذه الأخيرة مجموعة من الكفاءات الفرعية، هي: الكفاءة العقلية، والكفاءة الخُلقية، والكفاءة المعرفية، والكفاءة التواصلية.
- التأكيد على ضرورة تحديد المتكلم الاستراتيجيات التي تساعده على إنجاح خطابه، وقد كان طرح ابن وهب لهذه الاستراتيجيات واعيا، بحيث يعطي مفهومها، ومسوغات

المنارة للاستشارات

استعمالها، وكذا الآليات التي تحققها، والأهداف التي تبتغيها، ومن أظهر الاستراتيجيات عنده: المجادلة، والعيّ، واللحن.

- أنها خصصت موضوع الحديث المحادثة) بجهد مستقل، ذُكرت فيه المواصفات، والقوانين العامة التي تحكمه، وهذا جانب حري أن يُفرد بدراسة مستقلة، خاصة أنه من المجالات الجديدة في مجال تحليل الخطاب في الدراسات الغربية الحديثة.

---

[1] ينظر: ابن وهب أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تقديم وتحقيق حنفي شرف، مكتبة الشباب، عمان، دط، دت. والكلام لطه حسين، ص2.

[2] ينظر الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط10، مارس2009م، ص258.

[3] ينظر الجابري محمد عابد، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط9، أغسطس2009م، ص20.

[4] ينظر بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ط2، 1958م، ص 71.

[5] العمري محمد، الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2001م، ص72.

[6] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص49.

[7] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص49.

[8] ينظر: الجابري محمد عابد، بنية العقل العربي، ص26.

[9] وكأن ابن وهب هنا يرد على الجاحظ بعض ظلمه إياه، إذ غطى عليه في مجال النقد وقضاياه.

[10] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص363.

[11] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص363.

[12] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص363.

[13] ينظر شارودو باتريك، ومنغنو دومينيك، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري، وحمّادي صمّود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008م، ص181.

المنارة للاستشارات

[14] ابن وهب، البرهان، ص52.

[15] ابن وهب، البرهان، ص54.

[16] ابن وهب، البرهان، ص55.

[17] تنظر ص146 مثلا.

[18] ينظر كلام طه حسين، في مقدمة البرهان، ص 35.

[19] كما جاء في باب الأمثال.

[20] ينظر: Benveniste.E, Problèmes de linguistique générale, Edi Gallimard, 1996, p129.

[21] ابن وهب، البرهان، ص218.

[22] ينظر ابن وهب، البرهان، ص58.

[23] ينظر ابن وهب البرهان، ص56.

[24] ينظر: يقطين السعيد، انفتاح النص الروائي (النص والسياق)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001، ص16.

[25] ينظر المتوكل أحمد، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص17.

[26] ينظر المتوكل أحمد، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص17.

[27] الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، دط، دت، م1، ج1، ص56.

[28] ينظر: الجابري، بنية العقل العربي، ص16.

[29] ابن وهب، البرهان، ص163.

[30] ابن وهب، البرهان، ص152.

[31] ابن وهب، البرهان، ص49.

[32] ابن وهب، البرهان، ص56.

[33] ابن وهب، البرهان، ص70.

[34] ابن وهب، البرهان، ص92.

[35] ابن وهب، البرهان، ص94.

المنارة للاستشارات

[36] ينظر: ابن وهب، البرهان، ص127.

[37] ابن وهب، البرهان، ص154.

[38] ابن وهب، البرهان، ص58.

[39] ابن وهب، البرهان، ص61.

[40] وهذا أدق مما ذكره عبد الهادي الشهري من أن الخطاب يمر بمراحل ثلاث: إدراك السياق، ثم تحديد العلاقة بين السياق والعلامة المستعملة، ثم التلفظ، ينظر كتابه استراتيجيات الخطاب، ص63.

[41] أشار محمد العمري إلى أن نظرية ابن وهب تقوم على أساسين هما: استنباط المعرفة (الاعتبار والاعتقاد)، وتداول المعرفة (العبارة والكتاب)، ينظر: محمد العمري، الموازنات الصوتية، ص85.

[42] ينظر: ابن وهب، البرهان، ص58.

[43] ابن وهب، البرهان، ص94.

[44] تنظر الصفحات:65، 86، 92.

[45] ينظر: ابن وهب، البرهان، ص65.

[46] ابن وهب، البرهان، ص86.

[47] ينظر في التمييز بينهما، التهانوي، محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م، ج1، ص 265، وص 749. ولم يبتعد المحدثون عن هذا التقسيم، إذ الخطاب عندهم إما مناجاة (Monologue)، وإما حوارا ثنائيا (Dialogue)، وإما حوارا متعدد الأطراف (Plurilogue).

[48] تنظر التهانوي، ج2، ص 165.

[49] ينظر، أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص20.

[50] ابن وهب، البرهان، ص163.

[51] مانغونو دومينيك، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1428هـ 2008م، ص38.

[52] حباشة صابر، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ، والتداولية، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2010م، ص137.

المنارة للاستشارات

[53] ابن وهب، البرهان، ص127.

[54]ابن وهب، البرهان، ص193.

[55] ينظر خطابي محمد، لسانيات النص، ص48.

[56] ابن وهب، البرهان، ص101.

[57] ينظر ابن وهب، البرهان، ص101.

[58] يذكر المحدثون في باب استراتيجيات الخطاب، أن هناك طريقتين للمتكلم في التعبير عن مقصده، طريقة مباشرة وهي إجراء الخطاب على أصله، وطريقة غير مباشرة، وعي إجراء الخطاب على غير أصله.

[59] ينظر شارودو باتريك، ومنغنو دومينيك، معجم تحليل الخطاب، ص111.

[61] راستيني فرانسوا، فنون النص وعلومه، ترجمة إدريس الخطاب، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010م، ص42. الإمبريقية هي المذهب الذي يرى أن أصل المعرفة هي التجربة لذا يطلق عليها (المذهب التجريبي).

[62] ينظر نعمان بوقرة:" المصطلح اللساني النصي (قراءة سياقية تأصيلية)"، في أعمال ملتقى "اللغة العربية والمصطلح" 19-20 مايو 2002م، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، جامعة عنابة، ص239.

[63] ينظر عزام محمد، تحليل الخطاب في ضوء المناهج النقدية الحديثة، م إ ك ع، دمشق، 2003م، ص188.

[64] ارتبط تطور مفهوم هذين المصطلحين بالاتجاهات اللسانية الكبرى: البنيوية، والتوليدية التحويلية، والوظيفية، والتداولية.

[65] كان ذلك ستة 1968 في مؤتمر كونستانز Konstanz في محاضرة بيتير هارتمان Peter Hartmann.

[66] أو وحدة دلالية كما هو عند هاليداي ورقية حسن، في كتابهما" Cohesion in inglisg.

[67] كما هو الحال عند كلاوس برينكار Klaus Brinker.

المنارة للاستشارات

[68] كورنيليا فون رادصكوجي، لسانيات النص أو لسانيات ما بعد الجملة، وما قبل الخطاب، ص49، ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب، إشراف حمودي صمود، منشورات وحدة بحث تحليل الخطاب، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة، 2008.

[69] Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau : Dictionnaire d'Analyse du Discours, éditions du Seuil, Paris, Fevrier, 2002, p223.

[70] ابن وهب، البرهان، ص163.

[71] ابن وهب، البرهان، ص163.

[72] ينظر: Adam.J.M, Eléments de linguistique textuelle: théorie et pratique de l'analyse textuelle, Editions Mardage, Liege,2006, p11.

[73] تنظر أنماط الخطاب في أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص20.

[74] ابن وهب، البرهان، ص113.

[75] تنظر أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص24، و240.

[76] ينظر روبرت دي جراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998م، ص89.

[77] ينظر Sarfati Elia Georges, A Pratical course in terminology processing, Philadelphian, Amsterdam, 1990, p12.

[78] ينظر Dijk Teun, Van, Discours as structure and process: discourse studies, a multidisciplinary introduction, 1st, Sage publication, London, 1997, p24.

[79] ينظر ADAM, Jean-Michel, L'argumentation dans le discours, Paris : Armand Colin, 2006., p32.

[80] ينظر بلخير عمار، مقالات في التداولية والخطاب، دار الأمل للنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، ط1، 2013م، من ص9، إلى ص32.

[81] ابن وهب، البرهان، ص248.

المنارة للاستشارات

[82] يقوم هذا النوع من المقاربات على مبدأ "أن كل خطاب هو نتاج جماعي، أو تحقيق تفاعلي"، Catherine Kerbrat-Orecchioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armand Colin, 1980, p13. ، وهي أربع أنواع، المقاربة النفسية، والمقاربة الإثنية المنهجية، والمقاربة الإثنواجتماعية (ينظر السابق، ص58)

[83] ينظر العمري محمد، الموازنات الصوتية، ص84.

[84] ينظر شارودو باتريك، ومنغنو دومينيك، معجم تحليل الخطاب، ص112.

[85] ابن وهب، البرهان، ص92.

[86] ابن وهب، البرهان، من ص63، إلى ص101.

[87] ينظر ابن وهب، البرهان، ص101.

[88] ابن وهب، البرهان، ص192.

[89] ينظر ابن وهب، البرهان، ص138.

[90] ابن وهب، البرهان، ص165.

[91] ينظر ابن وهب، البرهان، ص355.

[92] ابن وهب، البرهان، ص285.

[93] ابن وهب، البرهان، ص256. وهذا يعني انتباهه إلى ضرورة تحديد معارف خاصة في أي علم، بحيث تتناسب مع مجال الخطاب، فالمادة النحوية مثلا التي يحتاج إليها الخطيب، ليست هي التي يحتاجها كاتب الحساب.

[94] ابن وهب، البرهان، ص286.

[95] ابن وهب، البرهان، ص248.

[96] ابن وهب، البرهان، ص201.

[97] ينظر مانغونو دومينيك، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص38.

[98] راستي فرانسوا، فنون النص وعلومه، ص291.

[99] ينظر خطابي محمد، لسانيات النص، ص297.

[100] ينظر المتوكل أحمد، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص17.

المنارة للاستشارات

[101] ينظر ابن وهب، البرهان، ص55.

[102] ابن وهب، البرهان، ص55.

[103] ابن وهب، البرهان، ص62 وص92.

[104] ينظر ابن وهب، البرهان، ص67355. وقد ذكر أن هذا النوع من الخطاب يقارب بإحدى الآليات الثلاث: القياس (العقل)، والخبر (النص)، والظن، (ص65 و79)، وهو حتى حينما ذكر الظن، قال: "وظن كل امرئ على مقدار عقله" ص 79.

[105] ابن وهب، البرهان، ص170.

[106] ابن وهب، البرهان، ص249.

[107] ابن وهب، البرهان، ص173.

[108] ينظر شارودو ومنغنو، معجم تحليل الخطاب، ص185.

[109] ابن وهب، البرهان، ص255.

[110] ابن وهب، البرهان، ص328.

[111] ذكر القياس ص67، والخبر ص76،

[112] ابن وهب، البرهان، ص86.

[113] ابن وهب، البرهان، ص287.

[114] ابن وهب، البرهان، ص290.

[115] ابن وهب، البرهان، ص307.

[116] ابن وهب، البرهان، ص250.

[117] تنظر ص244.

[118] تنظر ص330.

[119] تنظر ص198. ويدخل في ذلك العيوب التي يجب ألا تكون في الرسول، ص174.

[120] ينظر شارودو ومنغنو، معجم تحليل الخطاب، ص112.).

[121] ينظر، مانغونو، المصطلحات المفاتيح، ص23.

[122] ابن وهب، البرهان، ص121.

المنارة للاستشارات

[123] ابن وهب، البرهان، ص144.

[124] ص149.

[125] ص153.

[126] تنظر الصفحات:167، و172، و173.

[127] ص207.

[128] تنظر ص240.

[129] تنظر ص248.

[130] ابن وهب، البرهان، ص280.

[131] ينظر، مانغونو، المصطلحات المفاتيح، ص23.

[132] ينظر الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، ص: 61،

[133] هذا المصطلح ذكره محمد الخطابي في كتابه لسانيات النص، ص46.

[134] ينظر شارودو، ومنغنو، معجم تحليل الخطاب، ص533.

[135] الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، ص86.

[136] ينظر الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، ص: 149،

[137] الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، ص: 152،

[138] الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، ص: 61،

[139] ينظر شارودو، ومنغنو، معجم تحليل الخطاب، ص27.

[140] يوسف عبد الفتاح أحمد، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر، والدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 1431هـ 2010م، ص51.

[141] ينظر ابن وهب، البرهان، الصفحات على التوالي: 119، 350 و145، 243، 176، 198، 200، 202، 206 و350، 222، 236.

[142] ينظر، الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، الصفحات: 256، 322، 367، 444، كما ان هناك تقسيمات أخرى للاستراتيجيات، فهذا (براون) و(ليفنسون) يقسماها إلى خمس: التصريح، والتأدب الإيجابي، والتأدب السلبي، والتلميح، والصمت، ينظر الشهري، ص264.

المنارة للاستشارات

[143] ينظر، الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، صVII.

[144] ابن وهب، البرهان، ص198.

[145] ابن وهب، البرهان، ص206.

[146] ابن وهب، البرهان، ص215.

[147] ابن وهب، البرهان، ص351.

[148] Dominique Maingueneau, *Aborder la linguistique*, Paris : Points, coll. "Points essais", 2009, p5.

[149] *Culioli Antoine, Sur quelques contraditions en linguistique, [article], Communications, le Seuil, Année 1973, Volume 20, Numéro 1, p87.*

[150] ينظر شارودو، ومنغنو، معجم تحليل الخطاب، ص533.

[151] ابن وهب، البرهان، ص176.

[152] ابن وهب، البرهان، ص176.

[153] ابن وهب، البرهان، ص234.

[154] تنظر الصفحات 190 إلى 194.

[155] ينظر حباشة صابر، لسانيات الخطاب، ص245.

[156] ينظر، الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، ص449.

[157] ابن وهب، البرهان، ص202.

[158] ابن وهب، البرهان، ص205.

[159] ابن وهب، البرهان، ص206.

[160] ابن وهب، البرهان، ص206.

[161] ينظر في مفهومها، طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، المركز العربي الثقافي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص237 وما بعدها.

المنارة للاستشارات